

## فلسطين في أدب المسلمين في البلقان : الألبان نموذجا

بالرغم من وجود إشارات الى وصول مبكر للاسلام الى شبه جزيرة البلقان قبل الفتح العثماني للمنطقة منذ منتصف القرن الرابع عشر إلا أن الاسلام جاء وانتشر هنا مع العثمانيين الذين ضمّوا الى دولتهم لاحقا العرب والاماكن المقدسة (فلسطين والحجاز) حتى أصبحت الدولة العثمانية تمتد من اليمن الى البوسنة . وبعد ثلاثة قرون من الحكم العثماني أخذ انتشار الاسلام مداه حيث أنه أصبح دين الغالبية للالبان والبشناق (المسلمون من سكان البوسنة) وبقي دين الاقلية لدى البلغار والصرب والكروات واليونان .

ومع هذا التحول كان من الطبيعي أن تنشأ نظرة أو صلة جديدة للمسلمين مع فلسطين . صحيح أن فلسطين كانت تعتبر "الارض المقدسة" لشعوب البلقان بعد الانتشار المتأخر للمسيحية (بغالبية ارثوذكسية)، وهو ما أطلق الحج المسيحي نحو فلسطين خلال القرون اللاحقة، ولكن مع انتشار الاسلام في البلقان تعزّزت مكانة فلسطين لدى المسلمين باعتبارها "أولى القبلتين وثالث الحرمين" وأصبحت مقصودة ضمن خارطة الطريق للحج عند مسلمي البلقان الذين كان يحرصون على زيارة القدس في طريق الذهاب أو الاياب .

ومع بروز الافكار القومية وحركات التحرر والتنافس الأوروبي للسيطرة على شبه جزيرة البلقان أخذت ترسم خريطة جديدة للمنطقة. فقد قامت النمسا باحتلال البوسنة في ١٨٧٨ وقامت بسياسة "أوربة" للمسلمين هناك حتى تفصلهم عن الشرق وامتداده الثقافي والسياسي. ومن ناحية أخرى انتهز الالبان اندلاع الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ بين صربيا وبلغاريا والجبل الاسود واليونان من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى ليعلنوا استقلالهم عن الدولة العثمانية. ولكن تنازع المصالح بين الدول الأوروبية، الذي كاد أن يؤدي الى اندلاع حرب أوروبية في ذلك الوقت، أدى الى رسم خريطة

جديدة للمنطقة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وحسب هذه الخريطة انقسم الألبان الى نصفين متساويين تقريباً بين ألبانيا التي غدت "الدولة القومية" للألبان و بين الدولة الجديدة "يوغسلافيا" التي ضمّت النصف الاخر للألبان في كوسوفا ومكدونيا والجبل الأسود ومسلمي البوسنة أيضاً.

وخلال الحرب العالمية الثانية تشكّلت خريطة جديدة للمنطقة بعد أن قامت إيطاليا الفاشية باحتلال ألبانيا في ١٩٣٩ وبعد أن قامت ألمانيا النازية باجتياح يوغسلافيا في ١٩٤١ ، حيث تم ضم كوسوفا الى "ألبانيا الكبرى" و ضمّ البوسنة الى "دولة كرواتيا المستقلة" . وما يهمني هنا أن المسلمين في البوسنة وألبانيا دخلوا في صلة جديدة مع فلسطين من خلال مفتي القدس الحاج محمد أمين الحسيني الذي زارهم في ١٩٤٣ وسعى الى استقطابهم بعد زيارته الى روما وبرلين لاجل مقاومة الاستيطان اليهودي والانتداب البريطاني على فلسطين ضمن الصراع بين المعسكرين الكبيرين خلال الحرب العالمية الثانية . ولاشك أن جهود المفتي الحسيني قد أفلحت على الاقل في استقطاب بعض الضباط من البشناق والالبان الذين انضموا الى "جيش الانقاذ" وحاربوا في فلسطين خلال ١٩٤٧-١٩٤٨ .

وبالإضافة إلى ذلك لابد أن نأخذ بعين الاعتبار الوجود البشناقي والالباني في فلسطين نفسها الذي وُجد وبقي نتيجة للاختلاط بين الشعبين خلال الحكم العثماني الطويل . فقد استقر نتيجة للاحتلال النمساوي للبوسنة بعض البشناق الذين هاجروا الى فلسطين واشتهروا هناك الى الان بلقب "بشناق" ، وكذلك الحال مع بعض الألبان الذين استقروا في فلسطين وكان منهم أحمد حلمي عبد الباقي "رئيس حكومة عموم فلسطين" الذي لم يعد أحد يذكره في الذكرى الخمسين لوفاته في منفاه ببيروت عام ١٩٦٣ .

والى جانب ذلك كانت فلسطين تشدّ انتباه الألبان في البلقان لسبب آخر، ألا وهو مغزى المصير الفلسطيني بالنسبة للألبانيين. فمن المعروف أن الألبان يعشقون الحرية والاستقلالية ولذلك فقد كافحوا وعانوا كثيراً للحفاظ على حياتهم واستقلاليتهم. ومن هنا فإن الألبان يقدرّون كثيراً كفاح الشعوب الأخرى، سواء المجاورة أو البعيدة، في سبيل الحرية والاستقلال. ومن المعروف هنا أن الألبان شاركوا بحماس كبير في الحركة القومية التحررية سواء في اليونان أو في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر. ولهذا فإن مصير الشعب الفلسطيني كان يبعث في وسط الألبان ذلك الذي عانوه وعاشوه في الماضي.

ومع أن الشتات الألباني أصبح يمتد من تركيا الى إيطاليا إلا أن الأدب الألباني بقي يعتمد على منبعين كبيرين هما ألبانيا ويوغسلافيا السابقة. ومع أن الأدب الألباني يعتبر وحدة لا تتجزأ إلا أن كل فرع في الواقع يتميز بنكهة خاصة. فالأدب الألباني في يوغسلافيا السابقة يتميز من حيث المضمون والشكل عن الأدب الألباني في ألبانيا، وذلك لخصوصية التجربتين في هذين البلدين.

وفي الواقع أن التجربة الغنية للألبان في يوغسلافيا(١٩١٨-١٩٩٢) أدت إلى أن يغتني هذا الفرع من الأدب الألباني بالموثقات الخارجية. فمن المعروف أن الشعب الألباني في يوغسلافيا عايش خلال ١٩١٨-

١٩٤١ أصعب تحدّ لوجوده نتيجة للسياسة الاستيطانية التي كانت تمارسها بلغراد لتصريب كوسوفا بتهجير الالبان وتوطين الصرب هناك ليصبحوا غالبية مع مرور الوقت . ولكن مع انتصار الحزب الشيوعي اليوغسلافي، تحت قيادة تيتو، في الحرب الاهلية بين اليسار واليمين و تأسيس يوغسلافيا جديدة (فدرالية) تقوم على التعدد تمكن الالبان من أن يتمتعوا بحقوقهم القومية الأساسية. ومن ذلك كان يكفي أن يتمتع الالبانيون بحق تعلم اللغة الألبانية والتعبير بهذه اللغة عن أدبهم الجديد، الشيء الذي كانوا محرومين منه تماماً في العهد الملكي ١٩١٨-١٩٤١. ومن هنا ليس من المصادفة أبداً أن تبرز فوراً في هذا الأدب الجديد خلال الخمسينات الموتيفات الجزائرية التي تعبر عن تضامن الألبانيين مع إخوانهم الجزائريين في كفاحهم لأجل الحرية والاستقلال، هو الشيء الذي كان له مغزاه بطبيعة الحال بالنسبة إلى الألبانيين في يوغسلافيا.

وفي منتصف الستينات لا نستغرب في هذا السياق ما نجده من بروز للموتيفات الفلسطينية في محل الموتيفات الجزائرية، بعد أن أحرز الجزائريون حريتهم واستقلالهم. وقد كان لهذا التحول أيضاً مغزاه. فقد كان الألبان حينئذ (١٩٦٦) قد تحرروا من "القبضة القوية"، التي هي تعبير يوغسلافي عن "دولة أجهزة الأمن" بقيادة ألكسندر رانكوفيتش التي كانت تتحكم في الواقع بالدولة التي كان يمثلها في الخارج تيتو، وأصبحوا منذ ذلك الحين يتمتعون بوحدة فدرالية متساوية مع بقية الوحدات الفدرالية السبع في يوغسلافيا. وبالإضافة إلى هذا تجدر الإشارة إلى الموقف المعروف للرئيس تيتو من القضية الفلسطينية، الذي ساهم في خلق مناخ مؤيد للفلسطينيين في يوغسلافيا السابقة.

وفي هذا السياق كان لدور تيتو في تأسيس حركة عدم الانحياز ، التي تأسست بعد قمة بلغراد في ١٩٦١ ، تأثيره في إشاعة الاهتمام بـ "شعوب العالم الثالث" وآدابها في يوغسلافيا السابقة . وهكذا أخذ المصير الفلسطيني يبرز بقوة من خلال الترجمات لأشهر أدباء فلسطين (محمود درويش ومعين بسيسو و توفيق زياد وسميح القاسم وغانس كنفاني الخ) في مختلف اللغات بيوغسلافيا (الصربوكرواتية والالبانية والمكدونية الخ) . ومن ناحية أخرى فقد لعبت الصحافة اليوغسلافية ، التي كان لها مراسلوها في القاهرة وبيروت وغيرها ، في إشاعة الاهتمام بالمصير الفلسطيني خاصة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ و أحداث ايلول في الاردن ١٩٧٠ والحرب الاهلية في لبنان ١٩٧٥-١٩٩٠ . وفي هذا السياق لعب الصحفي الالباني المخضرم نهاد إسلامي الذي كان يتمتع بعلاقات شخصية مع القادة الفلسطينيين دوراً مؤثراً في ربط الالبان بالمصير الفلسطيني من خلال مئات التقارير التي كان يرسلها من بيروت والقدس ودمشق والقاهرة .

ونتيجة لكل ذلك يتميز الأدب الألباني في أن الموتيفات الفلسطينية تنتشر في كل اتجاه، إذ أنها تواجهنا في الشعر كما في النثر، ونجدها في شعر الأطفال كما نجدها في شعر الكبار، ونجدها في قصائد الشعراء الشباب كما نجدها في قصائد الشعراء المعروفين. والأكثر من هذا أن الموتيفات الفلسطينية نجدها حتى

في الشعر الذي يكتبه الأطفال في جرائدهم ومجلاتهم، وهكذا لدينا في هذا الأدب ما يشبه "السيل الشعري": أحياناً يسيل بهدوء وأحياناً بعنف، إلا أن منبعه لا ينضب أبداً. وفي هذا "السيل الشعري" لدينا إبداعات متفوّطة بطبيعة الحال طالما أنها صدرت عن أجيال مختلفة في لحظات مختلفة. فلدى الشعراء الشباب أحياناً أو غالباً صياغات شعرية للأحداث اليومية، للمآسي المؤثرة التي تحدث من حين إلى آخر في الجانب الفلسطيني، ولردات الفعل التي لا يمكن أو لا تريد أن تنتظر طويلاً. وبعبارة أخرى لدينا هنا "شعر فلسطيني" لا يختلف كثيراً عن شعر "الرومانسية الثورية" الذي يبدعه بعض الشعراء الفلسطينيين. ولكن في الجانب الآخر، لدى الشعراء الكبار بحيث ترفع مأساة الشعب الفلسطيني إلى المستوى الإنساني باعتبارها مأساة تقلق كل إنسان يتمتع بضمير.

وطالما أن الموتيفات الفلسطينية تنتشر بهذا الشكل في الأدب الألباني فليس من السهل بطبيعة الحال التعريف بها في مجال محدود كهذا. وفي هذه الحالة لا بد من الاختيار، في مجال الشعر مثلاً، وحتى بين قصائد الشعراء المعروفين الذين نجدهم عادة في المختارات التي تمثل الشعر الألباني مثل أنور جرتشيكو Enver Gjerqeku (١٩٢٨-٢٠٠٨) الذي كان ممن عايشوا كل التحولات التي لحقت بيوغسلافيا السابقة. وكان هذا الشاعر قد كتب قصيدة عن تل الزعتر في ١٩٧٨ وشارك بها في "مهرجان الشعر الثوري" في جنوب يوغسلافيا خلال ١٩٧٩ قبل أن تنتشر في عدة مجلات ومختارات. وفي هذه القصيدة الطويلة يرسم جرتشيكو بحزن بالغ كأبي فلسطيني مرارة الوضع الفلسطيني ولكن سرعان ما يأخذ منه الرمز بالنسبة للمستقبل الفلسطيني:

تل الزعتر

أنت شاطئ بحر دون نهاية

دون صخور، دون رمال،

أنت وطني المصغر

الذي ترسمه أصابع وأيدي الأطفال

المشوهين بالنابالم.

أنت من أكثر الأغنيات حزناً

التي تغني للطفل

المولود بين الحب والحقد

للطفل الذي لم يتعلم بعد نطق اسم أمه.

أنت السورة الأولى والأخيرة

لقرآن جديد،

لقرآن محفور على الجماجم..

ومن الشعراء المعروفين الذين كتبوا عن فلسطين لا بد أن نذكر المرحوم آدم غيطاني Adem Gajtani (١٩٣٥-١٩٨٢)، الذي كتب عدة قصائد عن فلسطين وعن الفلسطينيين. وفي قصائد هذا الشاعر نجد كل شيء يتميز بلون فلسطيني، أو أن كل ما يخص فلسطين والفلسطينيين له بالضرورة لون خاص يميزه عما عداه في العالم. ففي قصيدة "حب فلسطيني" مثلاً نجد أنه حتى الحب بالنسبة للفلسطيني يختلف عن حب الآخرين، بل إن الفلسطيني لا يمكن أن يحب سوى فلسطين ولذلك لا يمكن أن يحب كما يجب أية امرأة قبل أن ينتهي من حبه الأكبر:

لا،

ليس لدي وقت

للقبلات،

والنظرات

الرفاق ينتظروني

تحت زهرة الدم،

ليس لدي وقت للهمسات

ولضوء القمر..

وفي هذا السياق الذي يصطبغ فيه كل شيء فلسطيني بصبغة متميزة تبدو قصيدته الأخرى "رثاء أم فلسطينية":

يا فلسطين،

لن ينتزعك أحد من حلمنا

لا الليل ولا الطاعون

الآن استريح على صدري الأسود

واحلمي بطائرة العودة.

روحك الآن في كفي الحمراء

يا زهرة قطعت بمنقار غراب،

لا الليل ولا الطاعون

سينتزعك من حلمنا...

ولدينا قصيدة أخرى تحمل هذا الواقع - الرمز الفلسطيني، أي الأم الفلسطينية، ألا وهي قصيدة "حكاية أم فلسطينية" للشاعر يعقوب سرايا Jakup Caraja (١٩٣٥-٢٠٠١) حيث يتداخل فيها الماضي مع الواقع والمستقبل بشكل أخاذ:

في تل الزعتر، في ليلة مظلمة مع ثلاثة أطفال

مع ثلاثة آمال لأغبيتنا التي لم تنشد بعد

أحدهم أصبح يلفظ أُمي

والثاني أصبح يعرف ما يعني هذا الاسم وما لا يعني

أما الثالث فأصبح في وسعه أن يحميني

وأنا أصبحت للبكاء فقط

ولكن الآن يقولون لي بألسنتهم وعيونهم:

أماه، يا أماه، غني ولاتبكي

غني للمقاومة

التي ستحيينا وتنقذنا.

ومن ناحية أخرى نجد الشاعر محمد كرفيشي Muhamed Kerveshi (ولد ١٩٣٥) في قصيدة "فلسطين" يرى كمحمود درويش الليل كرمز للتبشير بالنهار طالما أنه لا بد أن ينجلي بحكم قوانين الطبيعة:

النار تمتد على دروبك الطويلة

إلا أن النجوم ترشد الليل إلى طريق عودته

أحصنة طروادة الباهتة تحني رؤوسها  
والغبار في أعينهم المغلقة  
يرقص رقصة فراقهم الباردة.

ومن الشعراء الذين كتبوا كثيراً عن فلسطين بدري هيسا Bedri Hysa (ولد ١٩٣٥) الذي يمثل حالة من الذوبان في الذات الفلسطينية. ففي لوحة شعرية مكثفة بعنوان "فلسطين" يعبر هيسا عن هذه العلاقة الخاصة التي تربط ما بين فلسطين والفلسطينيين ببساطة وعظمة في آن واحد:

بين فلسطين والفلسطيني عشق  
يفوق كل عشق  
بين فلسطين والفلسطيني حب مجنون  
ربط بينهما على مر القرون  
وعلى الرغم من كل ما حدث حتى الآن  
لن ترجع فلسطين بعد  
ولم يركع الفلسطيني إلى الآن.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "متى سيأتي فصل الربيع" يسحبنا هيسا وراءه لتتخيل ماذا يعني ذلك اليوم الذي ستفرح فيه فلسطين أخيراً، بل الذي ستكون فيه أسعد بلد في العالم:

حين يأتي ذلك الفصل  
فصل الربيع  
مرة وإلى الأبد  
أيتها الغالية والمقدسة  
للقرابين الكثيرة  
وللعمالقة  
وحين يلتقيان

ويتعانقان

فلسطين والفلسطينيون

الفلسطينيون وفلسطين

وتشهق فلسطين

ويبكي الفلسطينيون

من بحر دموع الفرحة

ومن بحر اللوعة

ستكون فلسطين أسعد بلد في العالم

آه يا فلسطين، متى سيأتي ذلك الربيع .

وبالإضافة إلى أمثال هذه القصائد التي تختزن الموتيفات الفلسطينية، التي لا يمكن التعريف بها في مجال كهذا، لدينا عدة قصائد مطولة تقترب من الملاحم، حيث ترتفع فلسطين إلى مستوى متميز يعبر عن الهم الإنساني برؤية فنية خاصة ذات قيمة كبيرة. ومن هذا لدينا عمل بشير موصلي Beqir Musliu (1960-1996) "آه يا فلسطين" الذي يمتد عبر مئات الأبيات. وفي هذا العمل نجد أن الشاعر موصلي يربط بشكل ناجح بين الادعاء الحديث للشرعية اليهودية على فلسطين بادعاء أقدم، ألا وهو الشرعية اليهودية على سلالة آدم وحواء، ولذلك يقوم الشاعر هنا بفرز جديد بين ذريتين لآدم وحواء - ذرية شرعية لـ "آدم البريء وحواء المقدسة" وذرية أخرى غير شرعية لـ "آدم الخاطئ وحواء المذنبة":

يا أبناء آدم الخاطئ وحواء المذنبة

من حملكم إلى هذا السهل الذي ليس سهلاً؟

ينبعث الموت

الذي حملناه على ظهورنا عبر العالم.

ماذا حل بكم

يا أبناء آدم وحواء

من أين جئتم إلى هذا السهل الذي ليس سهلاً

كنتم أماً على رؤوس الأصابع



وتحت الأظافر منذ أُلوف السنين  
كنتم حملاً لا يطاق على ظهر كل إنسان  
وما زلتم تبحثون عن الظلال الضائعة  
التي تجدونها فينا  
نحن أبناء آدم البريء وحواء المقدسة .

وعلى نمط آخر لدينا قصيدة طويلة من مئات الأبيات بعنوان "فلسطين" للشاعر عمر شكريلي Ymer Shkreli (ولد ١٩٤٥) التي يصور فيها بشكل مؤثر "الوطن" الفلسطيني الذي لا نجد له مثيلاً في العالم:

نحن مثل الطيور المحنطة،  
ليس لها تراب تمسه بأقدامها  
وليس لها أرض خاصة باسمها  
فوطنها الريح والزقزقة  
نحن لنا لساننا وعيوننا  
نحن مثل الطيور  
التي تطير في عكس الريح  
والرياح لا تتوقف للحظة.  
نحن أيضاً ليس لنا أعشاش،  
فأعشاشنا الأنقاض المفحمة  
وسماؤنا دخان البارود  
نحن لا نعيش فوق الأرض للموت  
ففي الموت يسكن أطفالنا  
نحن لا نملك شيئاً إلا السماء،  
ففي السماء لنا الحقول والبيادر  
لنا قطرات المطر وقنابل المدافع

في السماء يصفر لنا الرصاص  
باسم الفناء والشتاء  
نحافظ على العظام والبنادق  
لنبنى بها البروج والحصون .

محمد م. الأرنؤوط

### المراجع:

- للمزيد عن انتشار الاسلام في البلقان ونتائج انظر دراستنا : الاسلام والقومية في البلقان ، مجلة "دراسات تاريخية" عدد ٤٧-٤٨ ، دمشق ١٩٩٣ ، ص ١٢١-١٤٠
- بسبب هذا التعدد والتسامح الديني في البلقان نجد ان فلسطين انعكست بشكل آخر حيث لدينا مدينتان عريقتان سميت كل واحدة باسم القدس : سرايفو التي اشتهرت باسم "القدس الثانية" و أوهريد Ohrid التي اشتهرت باسم "قدس مكدونيا".
- للمزيد حول ذلك انظر كتابنا : الاسلام في أوروبا المتغيرة - تجربة ألبانيا في القرن العشرين ، بيروت ٢٠٠٧ ، ص ٣٠ و ٣٦ .
- للمزيد حول ذلك لدينا كتاب صدر مؤخراً لشاهد عيان عن مشاركة الضباط الالبان في حرب ١٩٤٨ : شوكت سليمان غاوجي، ذكرياتي عن ألبانيا ومصر وبلاد الشام في القرن العشرين ، إعداد وتقديم محمد م. الأرنؤوط ، بيروت (جداول) ٢٠١١ ص ٦٢-٦٤
- كان احمد حلمي معروفاً بين مجاليه بكونه ألبانياً . انظر : خيرية قاسمية ، الرعيل العربي الاول - حياة وأوراق عادل ونبيه العظمة ، لندن (رياض الريس للكتب والنشر ) ١٩٩١ ،
- تحت إلهام الاصدقاء أعد نهاد اسلامي مختارات من مقالاته عن الشرق الاوسط التي نشرت في الربع الاخير للقرن العشرين، وآمل أن نستعرضها هنا حين صدورها .
- Enver Gjerqeku,tal Al Zatar,Jeta e re,Prishtine 1978,p.670
- Adem Gajtani,Kuq,Prishtine 1978,p.43
- Ibid.,p.41
- Jakup Ceraja,Rrefimi i nje nene palestinese,Rilindja(Prishtine)30.09.1978
- Muhamed Kerveshi,Palestina,Rilindja(Prishtine)14.01.1978
- Bedri Hysa,Palestina,Fjala 12-,Prishtine 1978
- Bedri Hysa,Palestina,Rilindja(Prishtine)31.12.1982.01.1983-
- Beqir Musliu,Palestina,Fjala,Prishtine 115.12.1982-
- Ymer Shkrrreli,kerkoj denim me vdekje,Prishtine 1978,p.67